الأدب المـــاجن
وأثره فى نكبة فرنسا

للأســـتاذ يوسف البعينى

منذ خمسين عاماً على التقريب لم فى سماء الغرب كاتب من أوسع كتابه ثقافة ، وحكيم من أعمق حكمائه فكرة — هو الأديب الفرنسى الشهور رومان رولان الذى لا يجهله أحد من قراء الأدب العالمى الحديث .

ومما طالعته لهذا الكاتب الخلاب مقالة مطولة عالج فيها نكبة فرنسا فى الحرب الأخيرة وانتهى فى تحليله إلى نتيجة فلسفية رائعة هى أن الأمم الضعيفة الأخلاق الماجنة التفكير فى أدبها وحياتها ، يتسرب إليها الخمول والاستسلام تسرب الاعتلال فى الشجرة النخرة . فإذا لم تتلاف الأمم هذا الداء الوبيل قاضية على جراثيمه الفتاكة سارت إلى الانقراض على ما يذكر التاريخ .

لقد أصاب هذا الصاع الكبير فى تحليله . فهذه أمم الأرض وهى بين منقرضة هجرتها الحياة وخالية يواكيها الفناء ، نرى أن الضعف الأخلاقى والأدب الماجن المستهتر والانغماس فى أقذار الدعارة كانت السبب الأهم فى انهيار صولتها ، وانطفاء أنوارها ، وانطواء أعلامها فى ساح الجهاد

* * *

ذكرنى مقال رومان رولان بما قرأته من أعوام للبحاثة الأسبانى «أسين بالاسيوس» عن تاريخ الشعب الفارسى وقد عزا سقوط الفرس ، بعد أن درخوا الأمصار واستظهروا فى مختلف مرافق الحياة ، إلى الضعف الأخلاقى الذى تمشى فى آدابهم وضروب معيشتهم مثبتاً صحة كلامه بشواهد عديدة تشير كلها إلى أنواع الدعارة والفحشاء والانحطاط النفسى التى تمرغوا فى أوحالها مستهترين فى إرضاء حواسهم البهيمة بهدم كل قانون سام ونظام اجتماعى . ومن شواهده التى أوردها كتابه المذكور هذه الدعوة الوحشية وقد شاعت فى عصرها شيوعاً عظيما وهى للحكيم « شنهار » . وفيها يقول :

« الويل كل الويل ، لمن يكفر بالخمرة واللذة المصحوبة بنوبة من الذهول . فإن جزاءه الجحيم إذ تكوى روحه الشريرة بالنار ، وتقطع أطرافه وأوصاله بالسكاكين والكلاليب ، ثم يقذف فى بئر من الدم طعاماً للأفاعى والثعبان . أما الذى يقبل على تقديس الخمرة واللذة فطوبى له إذ ينال رضى خالقه فيعيش سعيداً ، ويموت سعيداً » .

وهذه دعوة ثانية للشاعر « سنطور » الملقب بالمطار الفارسى وقد لاقت إقبالا كبيراً عند خاصة الفرس وعامتهم :

« مل إلى شفة الكأس الصينية المزخرفة
لارتشف منها ما يلذ حواسى الجسدية
وبينما الشفة على الشفة ،
همست شفتها الرطيبة :
إشرب ما دمت حياً

المقيمين فى بنى أسد فكان مطرب النادى ، كان يغنى تلك الأشعار ويأتى بألوان من الغناء تهز السامعين هزاً . وكان مطيع بن إياس وهو صديق حميم من أصدقاء حماد عجرد من هؤلاء الغنائين الموهوبين أيضا وكان ينظم الشعر ويرويه . فكانت هذه الندوة ندوة الغنائين ، هذا ينظم وهذا يغنى وهذا يروى وهذا ينكت ، ومن هذا الخليط يتكون ذلك الجو الأدبى الذى امتازت به مدينة الكوفة كما امتازت حانات باريس وأمهات المدن الأوربية التى اشتهرت بالنتاج الأدبى فتجد فيها الشذوذ والعبقرية والسذاجة والاتقان والمتناقضات التى لا تجتمع فى نوادى العاديين من الناس .

أما بضاعة هذه الطبقة التى كانت تدر عليهم الأرباح فكانت الشعر وروايته ، وكانوا يحصلون على العطايا والهدايا إما عن طريق المدح وإما عن طريق الذم وهجاء الناس . وكانوا ينفقون أموالهم بغير حساب على القيان والشراب والمجالس والذهاب إلى البساتين لتمضية الوقت بين الماء والخضراء والوجوه الحسنة . وكان بستان شوذين من البساتين التى كان يقصدها إسماعيل بن عمار وصحبه وفى صحبتهم قيان بن رامين . فهنالك شراب وهنالك شواء وهنالك غناء . وهنالك الحياة التى كان يقضيها فرسان العصور الوسطى . أو جماعة « Burschenschaft » من طلاب الجامعات فى ألمانيا التى كانوا يقضون أوقاتهم على هذا النحو أيام الفراغ .

عواد على

فاللذة ستفقدها بعد حين وعندها تمسى الحياة بلا جمال »

وزاد العلامة الأسبانى على أدلته البالغة فى كتابه قوله : الشعب الفارسى لم يرض بالذل والهوان ، ولم يألف الانكماش توانى إلا بعد أن فقد أخلاقه فى أدبه واتجاهات حياته . هـذه بقة ناصعة لا تقبل التأويل والاعتراض ؛ لأن انحطاط الأخلاق ة لتضعضع الأفراد والجماعات وهو أشد خطراً على المجتمع من عف المادى نفسه . وما أصدق كلام الشاعر العربى :

نما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وهوت الدولة الفرنسية فى الحرب الأخيرة أمام عدوها ريحى الألد ، فلم تغن عنها حصونها المنيعة ولم يجدها نفعاً شها المدرب . وغدت باريس — عاصمة النور — مسرحاً وها التتصر الذى طالما حلم بانتهاك تلك المدينة العظيمة التى نعت تحت سمائها الصافية تماثيل الجبابرة ودور العلم والاختراع تاحف الفن والجمال ، وكلها تحتفظ بالذكريات الخالدة د الدهر .

وقد تبارى فريق من أمراء اليراعة فى تشخيص هذه الفاجعة ليل أسبابها فقال اندريه موروا الكاتب العالمى إن تفكك ده كان سببه قلة السلاح . وأكد جول رومان صاحب المؤلفات مة فى علم النفس أن تدهور أمته يعزى إلى خمول الساسة بغ أصحاب المقامات العليا . ونسب جاك ماريتان وشارل مورا واهما من أنصار الملكية إنكسار الامبراطورية إلى الاشتراكية برها من الآفات ... ما خلا الحكيم الكبير والمصلح جتماعى رومان رولان فقد خالف أقرانه وجلا بوضوح وجراءة كبة الشعب الفرنسى وأسبابها التى مهد لها الضعف الأخلاقى ى تمشى فى الأوضاع الاجتماعية والأدبية بعد الحرب الأولى بياً على عزة النفوس ، فغدا الأديب لا ينشد فى أدبه سوى غراض الدنيئة ، وأمسى الرجل المسئول لا يفكر إلا فى اء شهواته الحقيرة !

فهل صحيح قول هذا الحكيم ؟

إن من تدبر الأدب الفرنسى الحديث الذى ظهر بعد أن عصفت زعازع الحرب الأولى على العالم مكتسحة من الحياة كل ما يجعل الحياة .. يقر بحقيقة ما يقوله هذا المفكر البصير الذى عالج قضايا المجتمع فى كتابه « جان كريستوف » بما لم يعالجه قبله أحد من كتاب الغرب . وحسب القارىء أن يقابل بين انتاج أعلام الماضى وأدباء اليوم حتى يدرك موطن الحق وإن يكن جارحاً ، ويجس موضع الداء وإن يكن مؤلماً .

وعندى أن هذا النوع من الأدب الحديث هو الذى جنى على الأمة الفرنسية إذ أفسد أخلاقها وأمات فيها تقديس الكرامة وتلك النزعة إلى الحرية التى اشتهرت بها على مدى العصور . وأنا لم أقرأ رواية من هذه الروايات الماجنة المستهترة التى ظهرت بعد الحرب الأولى إلا رأيت الحب الجنسى والميول الساقطة تكاد تكون كل شىء ، فلا يستوقف الطالع من شؤونها الطويلة العريضة سوى تصوير أمور شاذة معيبة يندى لها الجبين حياء وخجلا لأنها تحمل فى طواياها العفونة والفساد مع الأغراء الفاضح المتهتك ...

وأكثر من شط فى هذا الباب زعماء مذهب « اللاوعى » الذى يلاقى اليوم أكبر التأييد فى الشرق العربى وعلى الأخص فى لبنان . وزعماء اللاوعى شبه جنون فى درس المسائل الجنسية فلا يرون فى العالم شيئاً خلافها يستحق الاهتمام ، وهكذا لا تجرى أقلامهم إلا بوصف الشهوات وتفاعيلها وبكل مثير للأهواء ودافع إلى الاستهانة بضوابط النفس والنظم الاجتماعية .

إليك مثالاً من هذا الأدب وهو للشاعرة « جان فالكر » :

« لا أريد النوم !

إذ فى النوم غفلة القلب ، وغياب الحب ، وحياة تمر ضياعاً

قد أطوّق ذراعىّ وأنا نائمة ، ولكن فمى لا يقول للحبيب : اقترب

ومتى غرقت فى سبات عميق تسكن همومى فلا أعود أشعر باللوعة تضنى قلبى وتحطم جسدى . لذلك لا أريد النوم !

إنى أحب آلامى الشديدة التى تضغط على كل شىء فىّ

أحب ساعات اليأس يسود فيها الجنون فتخور عزيمتى ،

وتضيع أنفاسي ، وتتلاشى قواى

أحب الاستسلام إلى كل أنواع العذاب ، لأنى بعد مجىء الصباح ، ألتذ بذكرى ما جرى لى تحت سدول الليل ، لذلك « لا أريد النوم » .

وإليك مثالا ثانيا وهو للشاعرة « مارى درمار » :

« كم فكرت عندما أكون بعيدة عنك قائلة فى نفسى : —

أى سر فيه يجذبنى إليه ؟ إنه ليس فتى جميلا .

بل هو متسلط ، قاس بمظاهره العنيفة !

كم قسوت على بشراسة ، وكم آلمتنى حاملا إلىّ العذاب بحبك الوحشى .

نعم لقد ملأت حياتى بالعذاب . ولكى أتخلص منك ، أريد أن أبغضك .

ولكننى أشعر تحت تأثير قبلاتك الطائشة أننى ملكك إلى الأبد ... »

وهاك مثالا ثالثاً وهو للشاعر بول فرلين :

« وقفت أمام رسمه الجميل

وقد لوى عنقه العاجى إلى اليمين

فعاودتنى منه ذكرى ليالينا المبطنة بالآهات والدموع

والغرام — وقد ذوى ربيعه ، ما زال يئن فى القلب قيثاره .

والنظرة السارحة ألقيتها البارحة على جدث يضم رفاته الذى أمسى طعاماً للديدان .

وآهاً — كيف تعرى فصله

حب تنوح فى الدجى أشباحه

أهكذا يتلف الموت أعيادنا

ويغيّب فى الثرى أحلامنا

فيمسى بعد زهو المنى شبابنا ترابا

ويكفن النسيان بكفه الماتية ،

ذكرياتنا الصّباح العذاب ...

نظم فرلين هذه القصيدة بعد وفاة (صديقه) أرتور رامبو صاحب عدة مؤلفات شعرية وبينهما ديوان « الزورق السكران » وقد تمكنت بينهما علاقات حربية شاع خبرها فى أوربا ثم انتهت فى عاصمة بلجيكا بعد حادثة مشؤومة لا تزال وقائعها محفوظة على اضبارة فى المكتبة الملكية بتلك العاصمة . وأنا ماجئت على ذكر هذين الأديبين إلا لأقول إن أتباعهما منتشرون فى الغرب انتشار الدساميل الخبيثة . ففى أسبانيا تزعمهم الشاعر غرسيا لوركا الذى ذهب ضحية فرنكو فى الثورة الأسبانية الأخيرة وقد ترك آثاراً بندى لها جبين الشعر . وفى البورتغال يعد أنطونيو بوتو فى طليعتهم . أما فى البرازيل فيعرفون باسم « الاعتزاليين » وهم أكثر من هموم إبليس ... لكن المحيط البرازيلى الراقى يواجههم بالنقد القاسى والتقريع الصارم .

وهذا المذهب الباطل بما فيه من تفكك أخلاق مهيض لأجنحة الشعر يقوم على التغزل بالرجل دون المرأة . والتغزل بالغلمان عرفه الفرس والعرب فى عصر الانحطاط .

على أن ما يحيط بهذا المذهب المغرى المشوق من صور ورؤى تموج فى ظلال وألوان زاهية حيناً وقاتمة أحياناً وقع من نفوس أنصاره موقع التأييد والاستحسان فحسبوا غموضه إلهاماً علوياً وإبهامه فناً غريباً . وفى المحاضرة التى ألقاها الأديب الكبير بول فالرى عن فرلين برهان أكيد على شذوذهم وقد جاء فيها ما يأتى :

« إن السلوك الشاذ ، والصراع مع الحياة القاسية ، وسكنى السجون والمستشفيات ، والعربدة المتصلة ، ومخالطة الأدنياء ، وحتى الإجرام نفسه — كل ذلك مما يلتئم والإنتاج الشعرى الرفيع . والحق أن الشاعر ليس رجلا اجتماعياً بالمعنى المعروف لهذا الإصطلاح ، فما دام الشاعر شاعراً فلن يستطيع أن ينتظم فى أية هيئة من الهيئات التى تنشد مصلحتها من طريق الحرص على الأخلاق والقانون ، فالقوانين المدنية تلفظ أنفاسها على عتبة شعره » .

ويضيق بى المجال إذا جئت أعرض لكل ما هنالك من شؤون وعبر . ولكننى أكتفى بإيراد مثال واحد وهو للشاعر بول جيرالدى صاحب ديوان « أنت وأنا » الذى قال عنه الفنان والفيلسوف الأسبانى المشهور ميكال أونامونو أنه من أحط ما نظمه الشعراء . وها هو :

« وكنا اثنين ، فى الغاب مجتمعين ، تحجبنا أشجاره عن

عين الرقباء ، فإذا ساقية تسير مترنحة ، وبليل على الأغصان يغنى .

كأنهما من صدى قبلاتنا تملان ... مترنحان .

قلت لرفيقى — وقد غمرته نشوة الحب — أمن قوامك الأهيف ، ومن شفتيك الورديتين ، تمتد وعشة سحرية فى الغاب فى الأشجار ، فى المياه والأطيار ، وفى كيانى المذنب يوخز غرام !

غرام طام كالسيل ، مستعر كالنار ؟

وعلى هذا النسق التعاطل يكتب الأدباء المعاصرون كتبهم وروايتهم ويظنون أنهم يخدمون أمتهم المسكينة التى هوت إلى حضيض الهوان فكانوا هم الجانين عليها كما يقول رومان رولان كبير مفكريها فى هذا العصر . وأنا حتى لا أتهم بالتحامل الخروج على الأمة التى أحببتها ووقفت على أدبها وتاريخها كأبنائها الحقيقيين أورد فيما يلى رأى إسطفان زويك الناقد النمسوى المشهور فى أدباء فرنسا المعاصرين وهو : « إن أدباء فرنسا الذين عاشوا بعد الحرب الكبرى متأثرين بمذهب عار من الخلق السامى تكريم والتصور الذى لا حدود له سيجرون المثل العليا إلى الهاوية . وإنى آسف الأسف كله لمصير هذا الشعب الذى سطر فى التاريخ البشرى أروع الصفحات وأمجدها » .

وأورد أيضاً رأى الرئيس ما زاريك الذى تمتع فى حياته بزعامة الأدب والسياسة وقد أدلى به إلى الوزير لويس بارتو عندما زار تشيكوسلوفاكيا فى عام ١٩٣٣ وهو : « إن أبطال قصصكم الجديدة عامة تحركهم الشهوات الوضيعة والحب الجنسى الشره . ويمكنكم أن تتأكدوا أننا قد ملانا ، بل قد اجتوينا هذا الضرب المأفون من روايات الماطلة السقيمة التى لا تطالعنا فيها سوى امرأة عليلة حبها اثنان أو ثلاثة عدا زوجها « الصنديد » الذى تخدعه بشتى الحيل . وهكذا فى دائرة بغير انتهاء . فهل هذا هو الفن الكتابى الرائع الذى اشتهرتم به على مدى العصور؟ ذلك لا يمكن أن يكون إلا هو زيف وكبوة فى الأدباء المعاصرين ، فإذا لم تنهضوا على هذا الداء الوبيل دفعتم غالياً ثمن تهاونكم فى المستقبل .

إن تحت قباب قوس النصر ووراء ستائر البانتيون ميوتاً تحدق . فحذار من تلك النظرات المخيفة ، حذار منها !! »

***

ولقد صدق الرئيس ما زاريك رحمه الله فى نبوءته وأدى الشعب الفرنسى ثمناً فادحاً لقاء رضاه عن ذلك الأدب الماجن المخدر . فهل فى نكبة فرنسا درس لنا أفراداً وجماعات ؟

عندما حمل الصالح الاجتماعى الكبير المرحوم أمين الريحانى على الأدب الماجن السخيف لم يكن يقصد فى حملته الصادقة إلا الأدب الساحن المشهر الذى نشره فى لبنان بعض الكتاب والشعراء من أنصار مذهب « اللاوعى » . وقد أحس الريحانى الفيلسوف أيامئذ إلى أمته الصغيرة التى لا تملك من مفاخر الحياة سوى خلقها العالى المتين ، والأمة التى تخسر خلقها تخسر كل شىء .

إن فى نكبة فرنسا درساً بليغاً لكل من ضعف خلقه وانحط تفكيره . ولو أن هذه الأمة اختطت لنفسها طريقاً قويماً غير الذى سلكته فى العقد الأخير مستوحية تاريخها العظيم الحافل بالأمجاد والمآثر بشواهد العبقرية لما اندحرت ذلك الاندحار الأليم الذى يشبه الأحلام !!

فهل يعتبر أنصار أدب الغموض والإبهام ؟

يوسف البعينى

من العصبة الأندلسية

تشهر وزارة الأوقاف بصفتها ناظرة مزاد ابدال قطعة أرض ١٥ قسيم وقف حسن بك حسيب الأهلى بناحية القوصية بمركز منفلوط بمديرية أسيوط بثمن أساسى قدره ٥٦٠ ج فعلى راغبى التزايد التقدم لمحكمة أسيوط الشرعية بجلسة ٢٦ / ٤ سنة ١٩٤٨ — ٢١ —